رحلات الحج الهندية
مصدر من مصادر تاريخ الجزيرة العربية
رحلة (زاد غريب) أنموذجا

الدكتور: إبراهيم بن محمد البطشان*

- **ليسانس في علوم اللغة العربية من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام 1400- 1401هـ.**
- **ماجستير في الأدب العربي من الجامعة نفسها عام 1417-1418هـ.**
- **دكتوراه في الأدب العربي من الجامعة نفسها عام 1422_1423هـ.**
- **يعمل الآن في الملحق الثقافي السعودي في الهند.**

تُعد الرحلة إلى الديار المقدسة: لأداء فريضة الحج من أهم الظواهر في تاريخ الشعوب الإسلامية؛ حيث تتم دراسة تلك الرحلات من خلال التدقيق والتحليل في البيانات والمعطيات المستوحاة من تلك الكتابات في سياقها الزماني والمكاني، كما تدعو تلك الكتابات إلى تحليل التجربة الفردية لمؤلفيها على خلفية المحيط الاجتماعي والسياسي الذي امتدت فيه هذه التجارب.

وعلى الرغم من أن معظم الرحلات الدينية التي ظهرت في الهند خلال القرون الماضية تمحورت حول زيارة الحرمين الشريفين وما تحيطهما من المدن المجاورة في الحجاز، إلا أن عددا من الرحالة الهنود ألفوا رحلات شملت زيارة مدن إسلامية أخرى مثل القدس والكوفة والبصرة وكربلاء والنجف ودمشق وغيرها: لمكانتها الدينية لديهم، ولوقوعها في طريق الحاج القادم برا من الهند إلى الحجاز .

اتخذت رحلات الحج أشكالا مختلفة في بلاد الهند، متمثلة في كتب الرحلات، والمقالات، والرسائل، والمناسك. وهي تصف – بدرجات متفاوتة وطرق شتى– خبرات مؤلفيها الدينية والمعرفية والاجتماعية، وتصور ثقافات مختلف البلاد والأصقاع الإسلامية التي يمر بها مؤلفوها، وتصف معاني الحج ومفاهيمه كما يدركها ويجربها كتابها ، وترسم الكثير من الرموز والطقوس الدينية والعقدية الشائعة بين المسلمين في اختلاف الزمان والمكان.

إن معظم رحلات الحج الهندية ليست مجرد وصف المشاهد وسرد الأحداث، بل هي بمثابة دليل ومرشد في الوقت في ذاته لمن ينوي أداء هذه الشعيرة، فلا تقتصر على ذكر تلك المشاهد التي اكتحلت بها عيون مؤلفيها في رحاب الحرمين وما يجاورهما من المشاعر المقدسة، بل تفيد القارئ بكل ما لابد من معرفته قبل شده الرحال إلى الديار المقدسة، مثل اقتناء ما ينبغي من الزاد، ومعرفة أنواع النقود والإجراءات المختلفة التي ينبغي للحاج استكمالها قبل بدء الرحلة وأثنائها، وما إلى ذلك من معلومات أخرى توفر على الحاج كثيراً من جهده وتعبه، وتخفف عنه وعشاء السفر وعناءه.

يعود تاريخ كتابة رحلات الحج في الهند إلى أواخر القرن العاشر الهجري؛ حين حج الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوي 1052هـ)،[1] رائد علم الحديث في الديار الهندية، فى سنة 998هـ، وألف كتابه (جذب القلوب إلى ديار المحبوب) الذي يركز في موضوعه الأساس على تاريخ المدينة المنورة، إلا أنه سجل بعض الملاحظات والانطباعات حول ما شاهده فى أثناء رحلته وإقامته في الديار المقدسة، وكتبه باللغة الفارسية، وهي السائدة آنذاك فى ربوع الهند باعتبارها اللغة الرسمية ولغة العلم والثقافة.

يقول فى أثناء حديثه عن مسجد بنى قريظة:

(يقع هذا المسجد في جهة الشرق من مسجد الشمس بالقرب من الحرة الشرقية، حيث تنتهي بساتين المدينة. هذا هو المكان الذي نزل به الرسول –عليه الصلاة والسلام – حين حاصر بني قريظة (إحدى قبائل

(1) الشيخ عبد الحق بن سيف الدين بن سعد الله البخاري الدهلوي (1052هـ)، أول من نشر علم الحديث بأرض الهند تصنيفا وتدريساً. تعلم على كبار علماء الهند والحجاز، نشر العلوم الإسلامية لاسيما الحديث في الديار الهندية، له مؤلفات قيمة في الحديث والفقه والعقائد. انظر: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام 5: 553.

اليهود). وقد جاء في رواية أن الرسول- عليه الصلاة والسلام- صلى في بيت امرأة جنب هذا المكان، وضمه الخليفة الوليد بن عبد الملك إلى مسجد بني قريظة في أثناء توسيعه. وكانت قد بنيت منارة مثل منارة مسجد قباء فوق مكان البيت، ولكن عبث بها الزمان فاندثرت، وظلت آثارها موجودة حتى عام 910هـ؛ حيث بنيت مكانها مصطبة يساوي ارتفاعها نصف قامة الإنسان، وما زالت موجودة إلى اليوم. كان المسجد القديم يشبه مسجد قباء في تصميمه وسقفه وأعمدته ومناراته، ولا يوجد هناك اليوم إلا مساحة مسورة طولها من الجنوب إلى الشمال أربع وأربعون ياردة ومن المشرق إلى المغرب اثنتان وعشرون ياردة[1].

يتميز (جذب القلوب إلى ديار المحبوب) بكونه فاتحة رحلات الحج في الهند. تحتوي هذه الرحلة على 17 بابا تحدث من خلالها الشيخ الدهلوي عن فضائل المدينة المنورة، وذكر أسماءها وتاريخها، وآداب زيارتها والأدعية والمأثورات الخاصة بها، كما وصف زيارته للمسجد النبوي والروضة المطهرة والأماكن التاريخية الأخرى في المدينة المنورة[2].

مضى قرن ونصف منذ ظهور (جذب القلوب إلى ديار المحبوب) دُونَ أن تتلوها رحلة بقلم كاتب أو رحالة هندي، إلى أن أنجبت الهند عالماً حمل لواء علم الحديث، وبذل في نشره جهوداً مخلصة ومساعي مشكورة، ألا وهو مفخرة الهند الإمام الشيخ شاه ولي الله المحدث الدهلوى (1176هـ)[3]، صاحب (حجة الله البالغة)؛ فقد حج الإمام الدهلوي عام 1143هـ، وألف كتابا سماه (فيوض الحرمين) بالفارسية، وسكب فيه حرارة مشاعره الفياضة التي اتقدت في وجدانه في أثناء إقامته في ربوع الحرمين. وعلى الرغم من قلة اهتمام الشيخ ولي الله الدهلوي بوصف ما شاهده في أثناء رحلته من الأماكن والمشاعر؛ حيث كان جل اهتمامه ذكر المسائل الفقهية واتخاذ الكتاب وسيلة الدعوة إلى سواء السبيل؛ إلا أنه تطرق في كتابه، الفينة بعد الفينة، إلى ذكر بعض المشاهد، مما

(1) جذب القلوب إلى ديار المحبوب، 144.

(2) انظر: أردو أدب مين سفرنامه، 465، وأردو مين حج كي سفرنامي، 52.

(3) قطب الدين أحمد ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي (1176هـ)، من كبار علماء الهند في التفسير والحديث والعقيدة والفقه والأدب والشعر. له مؤلفات كثيرة، من أشهرها: الفوز الكبير في أصول التفسير، المصطفى في شرح الموطا، حجة الله البالغة، وله ديوان شعر. انظر: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام6: 585، وساعة مع العارفين 1: 114.

جعل للكتاب مكانة علمية وتاريخية بين رحلات الحج الهندية[1].

ولم تظهر في الهند رحلة تتسم بأسلوب رحلات الحج إلا في العقد الثامن من القرن الثامن عشر الميلادي؛ حيث ألف الشيخ المحدث رفيع الدين المراد آبادي (1223هـ)[2] رحلته (سوانح الحرمين) بالفارسية أيضاً.

خرج الشيخ المراد آبادي حاجا سنة 1201هـ بسفينة شراعية، وذكر في كتابه أحوال رحلته البرية والبحرية. ومما يميز هذه الرحلة أن صاحبها تحدث فيها عن العلماء والمشايخ الذين تشرف بلقائهم واستفاد منهم في أثناء هذه الرحلة.[3] وتُعد كتابات الشيخ رفيع الدين باكورة رحلات الحج في شبه القارة الهندية من حيث أسلوبها الخاص بكتابة الرحلات. يقول الشيخ المراد آبادي في رحلته متحدثا عن مسيره من السعدية إلى مكة:

(غادرت السعدية عند الضحى في 14 شوال (يوم الاثنين)، ووصلت إلى مكة المكرمة في يومين: بعد أن قطعت مسافة أكثر من عشر كيلومترات ماشياً، حافي القدمين وعاري الرأس، وكانت الشمس شديدة: فكانت تحترق بها الحصى والرمال؛ فسبب ذلك مصاعب ومتاعب كثيرة، ولكن زيارة الكعبة ورؤية جمالها أزالت عني كل ما عانيته من عناء ومشقة طول حياتي)[4].

ولم تسجل رحلات هندية كثيرة بعد الشيخ رفيع الدين حتى جاءت رحلة النواب محمد مصطفى خان شيفته[5]: براه آورد (في سبيل الرشاد) في عام 1254هـ بالفارسية، ورحلة عطاء حسين فاني الغياوي (1889م)[6]: ديد مغرب (رؤية الغرب) المعروف بهداية المسافرين (رحلة الحرمين المعروفة بهداية المسافرين) في عام 1260هـ

---

(1) انظر: أردو أدب مين سفرنامه 466، وأردو مين حج كي سفرنامي، 53.

(2) رفيع الدين بن فريد الدين بن عظمة الله اللكنوي ثم المراد آبادي، (1223هـ)، أحد العلماء المشهورين، من تلامذة الشيخ ولي الله المحدث الدهلوي. له مؤلفات كثيرة، منها: قصر الآمال بذكر الحال والمآل، شرح الأربعين النووية، تذكرة المشايخ وغيرها. انظر: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام 7: 974.

(3) انظر: أردو أدب مين سفرنامه466، وأردو مين حج كي سفرنامي، 54.

(4) أردو مين حج كي سفرنامي55.

(5) النواب مصطفى خان بن النواب مرتضى خان شيفته (1869م). ولد وتوفي في دلهي، من كبار شعراء الأردية، له ديوان بالأردية والفارسية. انظر: أردو أدب كي تاريخ 783، وسوانحي إنسايكلوبيديا 378، وأردو مين حج كي سفرنامي 55

(6) من كبار أدباء اللغة الأردية وصاحب مؤلفات كثيرة، وله ديوان شعر بالفارسية والأردية. تعد رحلته أولى رحلات الحج الهندية باللغة الأردية، إلا أن معظم أجزاء هذه الرحلة ما زالت مفقودة. انظر: أردو مين حج كي سفرنامي 59.

بالأردية، ورحلة ملكة بوبال سكندر بيغم[1]: تاريخ وقائع حج (تاريخ وقائع الحج) في عام 1864م بالأردية أيضاً. ثم تسارعت وتيرة كتابة رحلات الحج خلال الفترة من 1870م إلى 1950م؛ فقد نشر كثير من المؤلفين رحلاتهم، فبلغ عددها في العقود الأربعة الأخيرة أضعاف ما ظهر خلال العقود الثمانية السابقة.

وعلى الرغم من ظهور بعض الرحلات في العالم العربي في وقت مبكر عقب الخلافة العباسية إلا أن هذا الفن الأدبي الخاص من الرحلات لم يكتب له الشيوع في المجتمعات الإسلامية إلا في عصور متأخرة، فمع كثرة تردد العلماء والمفكرين من شبه القارة الهندية على البلاد المقدسة للحج والزيارة، إلا أننا لا نجد أحد ا من أولئك الرحالة دون رحلته قبل أواخر القرن الثامن عشر الميلادي. فظهرت معظم هذه التأليف خلال الاحتلال البريطاني للهند .

ولا يتجاوز عدد رحلات الحج التي ألفت في الهند خلال القرن التاسع عشر الميلادي عشرين رحلة ظهر معظمها في العقدين الأخيرين منه.

ومن رحلات الحج المعروفة التي وصلت إلينا من هذه المدة: رحلة ماه مغرب المعروف بكعبة نما (قمر المغرب المعروف بمرآة الكعبة) عام 1288هـ لمحمد منصب علي خان، وسراج الحرمين عام 1290هـ للشيخ تجمل حسين، وسعادت دارين (سعادة الدارين) عام 1288هـ للحكيم فريد الدين، وسفرنامه حرمين (رحلة الحرمين) عام 1289هـ لحمد زردار خان، ومنبع الحرمين عام 1882م لمحمد بخش القادري، ومفيد الدارين عام 1882م لمحمد آيزد بخش، وتبصرة المؤمنين بلقب رفيق الزائرين عام 1296هـ لمحمد علي الجونفوري، ووكيل الغرباء عام 1299هـ لوزير حسين، ورهنمائي حج (دليل الحج) عام1884م لبركت علي، وسفرنامه عرب (رحلة إلى بلاد العرب) عام 1308هـ لمحمد حفيظ الله، ورسالة حج (رسالة الحج) عام 1892م، لعليم الدين[2]، وسياحة الحرمين بزيارة الثقلين عام 1893م لدلاور علي، وسفرنامه حجاز (رحلة إلى الحجاز) عام 1895م لميرزا عرفان

(1) النواب سكندر بيغم بنت النواب نظر محمد خان (ت 1868م) ، ملكة بوفال من 1844م إلى 1868م. كتبت رحلتها بالأردية، وما زال الأصل الأردي مخطوطا في مكتبة رضا برامفور دون أن ينشر، إلا أن ترجمتها الإنجليزية نشرت عام 1906م. انظر: اردو سفرنامي أنيسوين صدي مين 75، وأردو مين حج كي سفرنامي 64

(2) انظر: أردو سفر نامي أنيسوين صدى مين 66

علي بيغ[1].

وتقدم هذه الرحلات لقرائها تمثيلاً في ذاتياً لمؤلفيها في تفاوت انتماءاتهم وميولهم وخلفياتهم الفكرية والسياسية والاجتماعية؛ فمنهم علماء الدين والدعاة مثل الشيخ صديق حسن خان (1872م) [2] في رحلته (رحلة الصديق إلى البيت العتيق) ، ومنهم الأمراء والحكام مثل الملكة سكندر بيغم في رحلتها تاريخ وقائع حج (تاريخ وقائع الحج،1861 م)، ونواب ولاية رامبوركلب علي خان في رحلته عام 1872م) [3]، ومنهم الشخصيات الأدبية مثل عبد الماجد الدريابادي [4] في رحلته سفر حجاز (رحلة الحجاز، 1929 م)، وشورش الكشميري في رحلته شب جائي كه من بودم (ليلة في مجلس روحاني، عام 1967م) [5]، ومنهم الشعراء مثل الشاعر شيفته في براه أورد (في سبيل الرشاد، 1841م). وينتمي عدد جم من كتاب هذه الرحلات إلى الأسر التي تأثرت بالمؤسسات الحكومية في ظل الاحتلال البريطاني، من الأثرياء والإقطاعيين المتضلعين من الأدب الأردي، ومن الأسر التي لها صلات بالخدمات والوظائف الحكومية، بينما ينتمي بعضهم إلى خلفيات أخرى[6].

هذا وقد تركت بعض النساء الهنديات رحلات مكتوبة، إلا أنها قليلة مقارنة بنصيب الرجال، فمنهن أمة الغني نور النساء[7]، فقد حجت قبل حوالي قرن في عام 1909 م، وألفت رحلتها (سفرنامه حجاز، شام ومصر) (رحلة إلى الحجاز والشام ومصر)، وراحيل شيروانية[8]، حجت عام 1923م مع أخيها وألفت رحلتها

(1) انظر: أردو مين حج كي سفر نامي 71 وأردو أدب مين سفرنامه 157و 470.

(2) صديق حسن بن أولاد حسن بن أولاد علي الحسيني البخاري القنوجي (1307هـ)، مفسر، محدث، فقيه، مؤرخ، وأديب هندي، صاحب مؤلفات كثيرة بلغ عددها 222 مؤلفاً ما بين صغير وكبير، من كتبه: عون الباري، فتح البيان، نيل المرام، أبجد العلوم وغيرها. سافر للحج سنة 1285هـ. انظر: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام 8: 1246.

(3) النواب كلب علي خان بن النواب يوسف علي خان (1887م)، أمير ولاية رامفور فى شمال الهند من 1865م إلى 1887م. انظر:349 Dictionary of Indian Biography

(4) عبد الماجد بن عبد القادر الدريابادي. ولد عام 1892م في بلدة درياباد بولاية أوترابادیش، وتوفى عام 1977م في لكناو. أديب، شاعر، ناقد، محقق، مفسر، مترجم، رحالة. انظر: عبد الماجد دريابادي: أحوال وآثار 30و141. وتاريخ أدب أردو2: 935، ونقوش رفتكان،79.

(5) عبد الكريم شورش الكاشميري (1975م). ولد عام 1917 في لاهور. أديب وشاعر ومصنف معروف، من كتبه: ميان افتخار الدين، وفن خطابت، وسيد عطاء الله شاه بخاري، وأس بازار مين. انظر: جديد شاعري508، ونقوش رفتكان، 62.

(6) انظر: Islamic Contestations 296

(7) أديبة وكاتبة أردية. ولدت في حيدر آباد من عائلة تفتخر بكثرة الأدباء فيها. طبعت رحلتها عام 1996وتشتمل على 76 صفحة. انظر: أردو مين حج كي سفرنامي، 135.

(8) راحيل شيروانية بنت الحاج محمد موسى خان الشيرواني، من إحدى الأسر الثرية في علي جرة. انظر: أردومين حج كي سفرنا مي 161.

(زاد السبيل)، ورحلة صادقه ذكي[1]: (خيموكي شهرمي) (في مدينة الخيام) عام 1997م. وفي أواخر ثمانينيات القرن المنصرم نشر الكاتب الهندي المشهور إمداد صابري الجزء الأول من مجموعة رحلاته المقترح نشرها ضمن مجموعة كتابات الحج التي ألفت بأقلام كتاب العائلة نفسها[2].

وغني عن القول أنه يصعب الجزم بالإحاطة بكل الرحلات؛ لأنه من المؤكد أن هناك عدداً من الرسائل ومذكرات الرحلات غير المطبوعة لا يعرفها إلا أفراد من أسر مؤلفيها وخاصة أصدقائهم.

هذا وقد أصبحت الكتابات عن رحلات الحج ظاهرة جديدة تشترك في دوافع وسياقات كتابات الرحلات الأخرى التي برزت في تلك المدة لأهداف ومقاصد غير الحج والزيارة. وقد ارتبط ازدهار دوافع كتابة رحلات الحج بالمستجدات والتطورات في عالم الطباعة والنشر، وبدرجة الاتصال بالاحتلال البريطاني؛ للاستفادة من تطور وسائل النقل الحديثة التي سهلت التنقل والارتحال، وجعلت الكتاب يكتشفون آفاقا جديدة وطرائق تفكير حديثة.

تشترك الكتابات في رحلات الحج في كثير من خصائصها مع غيرها من الأنماط الأدبية الجديدة التي تتيح للكاتب فرصة للكشف عن شخصيته، وتعد –في بعض جوانبها– نوعاً من تمثيل الذات، وتركز على الخبرات والانطباعات الفردية: شأن كثير من السير الذاتية التي ظهرت في المدة نفسها. ولم يكتف المؤلفون بالمراقبة والرصد، بل شاركوا بنشاط وحيوية فيما رأوه ووصفوه من شعائر الحج وأحوال الحجاج.

يغلب على معظم رحلات الحج أن تتشح برداء الأدب الروائي والمسرحي؛ فتأخذ ما في المسرحية من حوار، وما في الرواية من وصف وأحداث، وتتشابه معظم رحلات الحج في موضوعاتها ، فتتناول في الغالب الأعم: بداية الرحلة، واللحظات الروحانية، والموجة الغامرة من الشوق لرؤية الديار المقدسة، ووصف الرحلة والطريق، والسرور بالوصول إلى الديار المقدسة، والمشاعر عند رؤية الحرمين الشريفين، ثم وصف رحلة العودة.

---

(1) أديبة وكاتبة أردية، من مؤلفاتها: بروفيسر محمد مجيب، وأدب، خواتين وسماح. انظر: أردو مين حج كي سفرنا مي 359.

(2)انظر: Islamic Contestations 296

شهدت العقود الأخيرة بعض الكتابات عن رحلات الحج التي كتبها أدباء بارزون ونالت شعبية واسعة، واتخذت أساليب أدبية جديدة. فقد دافع الروائى المشهور ممتاز مفتى في مقدمة رحلته عن هذا النوع من الكتابة بأنه لا يكتب للترفيه، ولا للتحقيق في مسائل الفقه والعقيدة، وإنما الغرض الأساس من الكتابة توثيق السيرة الذاتية للكاتب.

وقد يربط بعض الكتاب بعض الأحداث والمشاهدات في رحلته بواقع الحال في الهند في عهد الاحتلال: فيتناول أحداث عصره داعياً إلى الإصلاح والتطوير، فهذا ميرزا عرفان علي بيك[1] أحد الرحالة في أواخر القرن التاسع عشر يتناول في رحلته سفرنامه حجاز (رحلة الحجاز) مجموعة من القضايا السياسية والاجتماعية، ودعا الحكومة إلى العمل على تحسين النظام وتوفير الحماية والراحة والنظافة للمواطنين.

واصطبغت بعض رحلات الحج بصبغة دينية عقدية طائفية بحتة، وكان منبر الحج خير سبيل للدعوة والدعاية لتلك الأحزاب؛ فتجد كلا من الصوفي والسني الشيعي يسلكون مسالك متعددة للدعاية وتبيان آرائهم فيما يعتقدونه ويدعون إليه.

وقد زاد من أهمية بعض رحلات الحج الهندية القديمة وجود رسوم وخطط للمعالم الدينية، كما جاء في رحلة النواب محمد عمر علي خان – الذي سبق ذكره–، ورحلة (وكيل الغرباء) لوزير حسين [2] حين رسم المسجد الحرام، ورحلة السلطان داود (1963م) حين رسم مخططا دقيقاً لأرض المسجد الحرام، ورحلة (سفر الحرمين الشريفين) عام 1915م لمحمد عبد الرحيم نقش بندي[3] حين رسم وقوف الناس بعرفة.

(1) ألف رحلته في عام 1895م. انظر: أردو مين حج كي سفرنامي 93.

(2) وزير حسين الرضوي (1886م)، خرج للحج عام 1299هـ، وألف رحلته عام 1301هـ. انظر: أردو سفرنامي أنيسوين صدي مين 92.

(3) محمد عبد الرحيم نقش بندي من ولاية تامل نادو بجنوب الهند ،كان مراقباً مساعداً في الحكومة الإنجليزية، طبعت رحلته عام 1913م من مطبعة (شوكت الإسلام) بمدينة بنقلور.

وعلى الرغم من أن كثيراً من المؤلفين الذين أدركوا بدايات التصوير الضوئي لم يكونوا يستحسنون عرض صورهم التي التقطوها في الديار المقدسة؛ خوفا من إيذاء مشاعر الذين يستنكرون التصوير في ذلك الوقت –على الرغم من ذلك– جاءت رحلات عدة حديثة بصور فوتوغرافية معبرة، تؤرخ للرحلة وكاتبها، وتقدم شواهد على حال الحرمين والأماكن المقدسة.

إن رحلات الحج الهندية مصدر مهم من مصادر تاريخ الجزيرة العربية: بحيث لا تقل أهميتها عن وثائق تاريخية حافلة بالمعلومات القيمة حول الأوضاع الدينية والتعليمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية السائدة في مكة والمدينة وسائر مدن الحجاز في عصر مؤلفيها، علماً أن كثيراً منها سبق تأليفها تأسيس المملكة العربية السعودية.

أما الحالة الدينية والعلمية للحجاز، فتحدثنا هذه الرحلات عن علماء الدين والمشايخ الذين كانت تعقد حلقاتهم ومجالسهم العلمية في مكة والمدينة[1]، وتصف لنا المكتبات الشخصية والحكومية، مثل مكتبة الشيخ محمد نصيف في جدة [2]، ومكتبة الخليفة العثماني عبد الحميد خان في مكة المكرمة[3]، كما تصف حال اللغة العربية فتفيدنا بمدى شيوع اللغة العامية في مدن الحجاز آنذاك؛ من ذلك قول عبد الماجد الدريابادي في رحلته (1929 م) مشيراً إلى ذلك:

(إن عدد من يتحدث بالفصحى من أهالي جدة قليل جداً، بحيث لا يتجاوز اثنين: أحدهما الشيخ محمد نصيف والثاني الحاج عبد الله زينل) [4].

(1) انظر: سفرنامه حجاز، مصر، شام، فلسطين ولبنان 236.

(2) انظر: سفر حجاز 79.

(3) انظر: سفرنامه حجاز 90

(4) سفر حجاز 82

ويقول خواجة حسن نظامي في رحلته (1911 م) متحدثاً عما رآه في المسجد النبوي من الطقوس الدينية:

(يصعد المؤذنون منارات الحرم عقب كل صلاة، حيث يصلون على النبي بأعلى أصواتهم، ويتلون القرآن الكريم، وهذا عمل مستحسن يؤثر على كل من في المسجد، وتعجز الألفاظ عن وصف الروحانية والمشاعر الطيبة التي تبعثها وتوقظها أصواتهم في نفوس السامعين، ويواصلون التلاوة والصلاة على النبي حتى أثناء صلاة الليل، ولا نرى مثل هذا المنظر في أي مكان آخر ما عدا المدينة المنورة.) [1].

أما الحالة الاجتماعية، فتفيدنا هذه الرحلات بما شاع في الحجاز من الملابس والأزياء بمختلف أنواعها الرجالية والنسائية، وتصف أنواع المأكولات والمشروبات التي كانت شائعة آنذاك، مثل أنواع الخبز والشاي الأخضر الذي كانوا يحبونه. يقول القاضي سليمان سلمان المنصور بوري في رحلته (1339هـ):

(العرب حسنوا الملبس، ويحبون النظافة. ملابسهم في العادة نظيفة، بيضاء، مكوية، تخلط بلون غامق مثل الأزرق أو العنابي أو القرمزي، تغسلها وتكويها النساء في البيوت بأنفسهن: وهذا من الشيم التي يجب أن تتخلق بها بناتهم.

وهم يكثرون شرب الشاي، فالمقاهي كثيرة ومنتشرة داخل المدن وفي ضواحيها.)[2]. أما الحالة الاقتصادية، فنجد في هذه الرحلات ذكر أثرياء الحجاز ونشاطاتهم التجارية، وذكر جودهم وكرمهم وحفاوتهم بضيوف الرحمن على وجه خاص، كما تصف لنا العملات الشائعة آنذاك في الحجاز، والأسواق وأنواع البضائع التي كانت تباع فيها. يقول المنصور بوري في رحلته:

---

(1) سفرنامه حجاز، مصر، شام، فلسطين ولبنان 217.

(2) سفرنامه حجاز 48.

(سوق السويقة مسقوفة بألواح من الخشب ترتفع حوالي ثلاثين قدماً، ومع أن مساحتها ضيقة فإن تجارتها منتعشة، وفيها متاجر الأثرياء. ومحلاتها حافلة بالمستوردات الأوروبية، إلى جانب القماش الشامي الجيد وغيره من الأشياء. توجد أسواق اللحوم والخضار والفواكه على حدة. وجميع المأكولات متوفرة بقدر كاف.) [1].

تلقي هذه الرحلات الضوء على الأوضاع السياسية التي كانت تشهدها منطقة الحجاز في تلك الآونة، فنجد فيها ذكر الحكام والأمراء والولاة، والخدمات التي كانوا يقدمونها للحجاج، كما تصف لنا الحالة الإدارية لمدن الحجاز[2]، وتحدث مؤلفو عدد من هذه الرحلات إلى العلماء والأعيان الموجودين في الحجاز حول القضايا السياسية، وأشاروا إلى ذلك في رحلاتهم، فنجد فيها آراءهم ومواقفهم إزاء بعض القضايا السياسية في تلك الفترة[3].

رحلة زاد غريب

الكاتب:

ألف رحلة (زاد غريب) النواب محمد عمر علي خان بن النواب أسد علي خان، أمير إمارة (باسوده)، الإمارة الهندية الإسلامية التي كان قد أسسها النواب إحسان الله خان بن محمد دلير خان الأفغاني الأصل من سُلالة باراكزائي فيروز كهيل عام 1753م في وسط الهند، بينما أسس أخوة الكبير إمارة كوروائي جنب إمارة باسودة في المدة نفسها.

---

(1) سفرنامه حجاز 47.

(2) انظر: سفرنامه حجاز، مصر، شام، فلسطين ولبنان 234 وسفر حجاز 81.

(3) انظر: سفرنامه حجاز، مصر، شام، فلسطين ولبنان 232.

امتدت إمارة باسودة على مسافة 104 كيلومتراً، وضمت حوالي 23 قرية. وتسلم النواب محمد عمر علي خان مقاليد الحكم من أبيه عام 1864م، وظل مسيطراً عليها حتى وفاته عام 1896م.

تزوج كريمة الأمير الكوروائي محمد مظفر خان، ورزق منها ولدا. خلفه ابنه النواب حيدر علي خان فيروز جنك، ودامت هذه الإمارة ستين سنة عقب وفاة النواب عمر علي خان: حيث انحلت وانضمت إلى حكومة الهند في عام 1947م عقب استقلال البلاد من سيطرة الإنجليز.

كان النواب عمر علي خان كثير الترحل مولعا بالسياحة، فقضى جزءاً كبيراًُ من حياته في السياحة، وألف كتاباً عن كل رحلة قام بها: بحيث بلغ عدد رحلاته سبع رحلات كتب عنها سبعة كتب. ومما يميزه أنه فاق معاصريه بالهند من حيث كثرة التأليف في فن الرحلات. ويشمل كتابه (زاد سفر) رحلاته في مختلف المدن الهندية مثل كلكاتا ولكناو وحيدر آباد ولاهور. وسافر إلى الحجاز ثلاث مرات، وألف (زاد غريب) عن رحلاته في الجزيرة

(1)انظر: سفرنامه حجاز، مصر، شام، فلسطين ولبنان 232.

العربية والعراق وبلاد العجم ومصر والشام عام 1880م. خرج في رحلته الأوروبية عام 1888م، وألف (سفرنامه آئينه فرنك) عن رحلاته في لندن وباريس وإيطاليا وسويسرا وتركيا. وألف رحلته إلى سيرلانكا باسم (سفرنامه رئيس)، ورحلته إلى ميانمار باسم (نيرنك رانكون)، ورحلته إلى الصين باسم (نيرنك صين). وسافر إلى أوربا مرة ثانية في عام 1889م، وزار موسكو وبودا بست وبلغراد وبلجيكا وألمانيا ومدناً أوربية أخرى، وألف (فرهنك فرنك معه آهنك فرنك). كما ألف رحلته إلى إسبانيا باسم (قند مغربي) [1].

يبدو أن النواب عمر علي خان كان قد ابتلي في شؤون الحكم بلاءً عظيماً، ووجد نفسه في غمرة الهموم والأحزان، وما لاقى السلوان إلا في التنقل والارتحال، فشد الرحال، وهجر الخلان، وتنكر للحكم والجاه والمال،

(1) انظر ترجمته في: The Golden book of India 62، وأردو أدب مين سفرنامه 157، وأردو سفرنامون كا تنفيدي مطالعة 125، وأردو سفرنامي أنيسوين صدى مين96،/ وأردو مين حج كي سفرنامي98.

واعترف بذلك في مقدمة رحلته حيث قال: (كم عانيت من الهموم والبلابل، فقد حان الوقت لشد الرحال، وجوب الآفاق: ليخفف ذلك من أحزاني، ويفرج من همومي وأشجاني.) [1]

توفى النواب عمر علي خان عام 1896م.

الرحلة:

هذا الكتاب في وصف رحلات قام بها مؤلفها في بعض البلاد العربية والإسلامية عام 1880م ، والنسخة المطبوعة التي اعتمدناها لدراسة هذه الرحلة هي طبعتها الرابعة المنقحة التي قام بنشرها محمد خليل بُلند شهري صاحب مطبعة غُلزار محمدي في مدينة ميروت بولاية أوترا براديش في عام 1313هـ بعد ما ظهرت طبعتها الرابعة قبل التنقيح في عام 1312هـ من المطبعة نفسها.

تحدث المؤلف في هذا الكتاب عن أحوال عدد من الرحلات التي قام بها في مختلف البلاد العربية، والأمصار الإسلامية، من أمثال مكة المكرمة والمدينة المنورة، ودمشق، وعدن، وجدة، وبيت المقدس، وكربلاء، والنجف، والبصرة، ومصر، والشام، ومدائن صالح، ومدافن الأنبياء والشهداء والأولياء، بالإضافة إلى رحلاته في بعض أول آسيا الوسطى.

تتخلل هذه الرحلة خرائط لعدد من الأماكن التي زارها صاحبها مثل خريطة مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وكربلاء، والقدس وغيرها. ولم يقتصر المؤلف في كتابه على رحلة الحج التي تشرف بها بل تحدث فيه عن رحلاته المختلفة في الأقطار العربية والإسلامية التي زارها.

(1) زاد غريب3.

استهل المؤلف كتابه برحلته للحج تيمنا بها، كما قال في أوله:

(أستهل هذا الكتاب برحلة الحج تيمنا بها واقتداء بصنيع المؤلفين الذين يبدأون جميع مؤلفاتهم بل كل باب من أبوابها بالبسلمة.)[1]

ويقول المؤلف مشيراً إلى الدوافع وراء هذه الرحلة:

(دفعني إلى هذا التنقل والارتحال أسباب مختلفة، يعود بعضها إلى قلة العناية بشأني من قبل أولى الأمر وأصحابي، ويرجع بعضها إلى طبيعتي التي تجنح لشيء من النفور والجفوة، وبعضها راجع إلى سوء حظي في الحياة.) [2]

فيبدو أنه حاول الهروب من واقع الحياة واللجوء إلى حياة العزلة والاغتراب: كأنه ضاقت عليه الأرض بما رحبت حزناً وهماً، فبدأ يبحث عما يُسلي به فؤاده، ويُفرج به عن نفسه وهمومه، وما وجد ضالته إلا في شدِّ الرحال.

تحتوي هذه الرحلة على مقدمة وعدة أبواب، والمقدمة تتضمن أربعة عشر فصلاً تحدث فيها الكاتب عن الموقع الجغرافي للبلاد العربية، وفضلها على سائر أمصار العالم، وسبب تسميتها بهذا الاسم، وجهاتها الأربع، وأجزائها وأهم مناطقها وقبائلها، والمسافات بين مختلف بلدانها، وأشهر أنهارها وجبالها ومناخها ومعادنها وثمارها ومستورداتها ومصدراتها، وتحدث في الفصل الأخير عن الخلفاء والأمراء العرب على مدى العصور.

(1) المصدر السابق.

(2) المصدر السابق.

عقد المؤلف الباب الأول بعنوان: (أمور يجب أن ينتبه لها الحاج)[1]، أشار فيه إليها كان يعانيه الحاج من المشكلات في أثناء ركوبه السفينة في زمنه. ووصف في الباب الثاني أنواع المراكب وأشكالها المختلفة. وفي الثالث أشار إلى المسافة بين مومباي وجدة. ثم أورد تعليمات مهمة للحاج قبل مغادرته. ثم شرع في ذكر أحوال الرحلة وواصل بيانها حتى نهايتها.

المكانة التاريخية والجغرافية للرحلة:

تتميز هذه الرحلة باحتوائها على معلومات تاريخية قد لا نجدها في الرحلات الأخرى من العصر نفسه: فوصف الكاتب المشاعر المقدسة بصفة عامة والحرمين الشريفين بوجه خاص وصفاً مفصلاً، ورسم كل ما شاهده في رحابها العاطرة: فأثناء حديثه عن الكعبة المشرفة (حسبما تم تشييدها في عهد الخليفة العثماني السلطان مراد خان وما زال موجوداً حتى زمن الكاتب) ذكر المسافة من باب إلى آخر والمساحة من جهة إلى أخرى، ووصف فناء الحرم وأعمدته وأروقته ومحاريبه ومناراته وزخارفه، وتحدث عن الفوانيس والشموع والقناديل الموقدة بداخله وذكر عددها.

وعلى نفس المنوال وصف الحرم المدني، فذكر عدد مناراته وأسماءها، وطُول المسجد وعرضه من جهة إلى أخرى، ووصف أفنيته ومحاريبه وجدرانه ومنابره وأعمدته وقبابه، ووصف الروضة المطهرة والأضرحة والقبور والمساجد التي زارها داخل المدينة.

ومما تتميز به هذه الرحلة اهتمام مؤلفها بذكر المعلومات الجغرافية والديموغرافية للمدن التي زارها، فقال متحدثاً عن مكة المكرمة:

(1) زاد غريب12.

(توسع العمران حتى امتد إلى كهوف بعض الجبال) [1]

وأضاف قائلاً:

(انتشر العمران إلى جبل الكعبة وجبل عمر، وقد عمر الناس جبل قبيس أيضاً حيث وصلت منازلهم إلى القلعة شرقاً وجنوباً[2])

وقال عن مدينة جدة:

(هذه مدينة صغيرة يسكنها حوالي خمسة عشر أو عشرين ألف نسمة) [3]

وقال متحدثاً عن مدينة عدن:

(يبلغ عدد سكانها ما بين أربعة أو خمسة آلاف نسمة) [4].

فهذه الرحلة حافلة -مثل الكثير من الرحلات- بمعلومات جغرافية للمدن والقرى والبلدان والأماكن الأخرى التي زارها مؤلفها، وبعض المعلومات الجغرافية التي تضمنتها هذه الرحلة ذات شأن وأهمية: بحيث إن كثيراً من المعالم التاريخية التي ورد ذكرها في هذه الرحلة قد طال بها الزمان، وعبثت بها الأيام، فذكر فيها المؤلف المساجد التي صلى فيها، وتحدث عن المدافن والأضرحة التي زارها فأشار إلى مدفن السيد أبي بكر العيدروس في عدن [5]، وإلى قبر حواء -عليها السلام- بجوار قلعة مدينة جدة[6]، كما تحدث عن الأسواق والأحياء التي زارها في مكة وغيرها من المدن. وذكر المنازل التي اجتازها بين مكة والمدينة والمدة التي استغرقها قطعها، ووصف ما بها من الأسواق

(1) زاد غريب21.

(2) المصدر السابق.

(3) زاد غريب18

(4) زاد غريب17.

(5) انظر المصدر السابق

(6) أنظر: زاد غريب18

والمتاجر والحصون والآبار التي لم يبق لكثير منها إلا ذكر وبيان في بطون كتب التاريخ.

المجتمع الحجازي:

اهتم الكاتب بتصوير الحياة الثقافية للمناطق والمدن التي تحدث عنها في رحلته ولو كان ذلك قليلاً. ومن ذلك –على سبيل المثال– ما تحدث عن ملابس الرجال والنساء الرائجة في الحجاز في ذلك العصر: فذكر عقب حديثه عن الكعبة المشرفة الجبة والصدرية والسروال والحزام والتكة والشال وغيرها من ملابس الرجال [1]، ووصف شتى أنواعها وتصاميمها الشائعة آنذاك. كما ذكر المدورة والقميص والصدرية والبرقع والملاءة وغيرها من ملابس النساء. وتحدث عن حلي النساء وزخارفهن[2].

قال واصفاً ملابس البدو: (يكتفون بإزارٍ واحد، ويضع بعضهم منديلاً على رؤوسهم. معظم ملابسهم فضفاضة، ويشدون حزاماً حول الخاصرة[3].

وتحدث عن المكاييل والأوزان الرائجة في تلك الأيام في الحجاز بمختلف أنواعها وأشكالها، كما وصف الظروف والأواني المتداولة في مكة والمدينة وقتئذ: فذكر من الظروف الكناني والقلال والإبريق والذورق والزمزمية المخروطية الشكل وغيرها. [4]

لا نراه يتحدث عن الحالة الاجتماعية للمجتمعات التي تفاعل معها في أثناء رحلته في الحجاز، إلا ما تحدث قليلاً عن حياة البدو: فوصف طبيعتهم وملامحهم وخصالهم وجودهم وكرمهم، وأشار في رحلته إلى نظامهم الاجتماعي فقال:

---

(1) انظر: زاد غريب27.

(2) انظر: زاد غريب28.

(3) انظر: زاد غريب43.

(4) انظر: زاد غريب29.

(تقطن قبائلهم في أماكن متفرقة، مثل قبيلة حراب القاطنة في منطقة بئر عباس ووادي الصفراء ورابغ على شواطئ البحر، وقوم الجبارين[1] القاطنين في أطراف القضيمة وخليص[2].

حاول الكاتب من خلال رحلته إطلاع القارئ على ما شاع بين أهالي الحجاز من الشعائر والطقوس الدينية في تلك الأيام، فأشار إلى ما كان شائعاً بين أهالي مكة والمدينة من عبادة القبور وبناء القباب فوقها وتشييد الأضرحة وزيارتها ، فذكر ضريح الشيخ محمود قرب مكة [3]، ووصف القبب فوق بعض القبور في جنة البقيع[4]، وذكر قبر الشيخ زكي الدين ابن الإمام جعفر الصادق قُرب المدينة[5].

وأشار إلى بعض العادات والمراسم الدينية الشائعة آنذاك: فتحدث عن موكب شريف مكة حين قدم مكة المكرمة في العاشر من شهر ذي الحجة مع كسوة الكعبة ليكسوها إياها بتلك المناسبة[6]. وأشار إلى الطقوس الرائجة آنذاك لزيارة الروضة، فقال في أثناء حديثه عن الروضة المطهرة :

(وطريقة زيارتها أن الزائر يرتدي ثوب الخدم، ويأخذ شمعة بيده، ويقف بكل أدب واحترام، فلا يلتفت يمينا أو يساراً، ولا يمس القبر المقدس بيده) [7].

ومما تجدر إليه الإشارة أنه يذكر الأشياء التي كان يتبرك بها الحجاج آنذاك، مثل مياه الآبار السبع وتراب المقابر وعود الضرائح وشمع المقابر والمياه التي كانت تغسل بها المقابر وقماش الغلاف وتراب الشفاء والحناء وما إلى ذلك[8].

---

(1) هكذا بالتشديد. ولعلها: الجبارين، بالتخفيف، وهمت فخذ من مطير.
(2) انظر: زاد غريب 43.
(3) انظر: زاد غريب 19.
(4) انظر: زاد غريب38.
(5) انظر: زاد غريب39.
(6) انظر: زاد غريب21.
(7) انظر: زاد غريب37.
(8) انظر: زاد غريب40.

المصادر والمراجع

1- أروسفرنامون كا تنقيدي مطالعة (دراسة نقدية للرحلات الأردية). د.خالد محمود، مطبعة (Maktaba Jamia Limited)، نيودلهي، 1995م.

2- أردوسفرنامى أنيسوين صدي مين (الرحلات الأردية في القرن التاسع العشر الميلادي). قدسية قريشي، مطبعة (Maktaba Jamia Limited)، نيودلهي، 1987م.

3- أردو مين حج كي سفرنامي (رحلات الحج الأردية. محمد شهاب الدين، مطبعة (Universal Book House). عليكره.

4- أردو أدب كي تاريخ (تاريخ الأدب الأردي). تبسم كاشميرى، مطبعة (سنغ ميل)، لاهور،2003م.

5- أردوأدب مين سفرنامه (الرحلات في الأدب الأردي). أنور سديد، مطبعة (مغربي باكستان أردو أكيدمي)، لاهور، باكستان.

6- الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بنزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر. العلامة عبد الحي بن فخر الدين الحسني، دار ابن حزم، 1420هـ.

7- تاريخ أدب أردو، وهاب أشرفي، مطبعة (Educational Publishing House)، نيودلهي، 2007م.

8- جديد شاعري. عبادت بريلوي، مطبعة (Educational Publishing House)، نيودلهي، 1983م.

9- زاد غريب معروف بـ ماه مغرب (زاد المغترب المعروف بقمر المغرب). النواب محمد عمر علي خان، مطبعة (غلزار محمدي) ميروت، ولاية أوترا براديش، 1313هـ.

10- ساعة مع العارفين. سعيد الأعظمي الندوي، مكتبة الفردوس، لكناو (الهند)، 1428هـ.

11- سفر حجاز (السفر إلى الحجاز) لعبد الماجد الدرياباري، مطبعة (نامي) لكناو.

12- سفرنامه حجاز (الرحلة الحجازية) أو الهادي إلى سبيل الرشاد للقاضي محمد سليمان سلمان منصور فوري، مطبعة (كانشي رام)، لاهور، 1343هـ.

13- سفرنامه حجاز، مصر، شام، فلسطين ولبنان (رحلة الحجاز ومصر والشام وفلسطين ولبنان) لخواجة حسن نظامي، مطبعة (Print Center)، كوشه شيلان، نيودلهي، 2009م.

14- سوانحي إنسايكلوبيديا (موسوعة السيروالتراجم). رضاء الرحمن عاكف، مطبعة (كتابي دنيا) نيو دلهي،2007م.

15- عبد الماجد دريا بادي: أحوال وآثار. تحسين فاروقي، مطبعة (إدارة ثقافة إسلامية)لاهور، 1993م.

16- مجلة (أكادمي) الأردية، العدد 10، نوفمبر وديسمبر 1990م، عدد خاص حول شخصية عبد الماجد الدريابادي.

17- نقوش رفتكان (ذكريات الراحلين)، المفتي محمد تقي العثماني، مطبعة (Fareed Book Depot)، نيودلهي، 2006م.

1-Dictionary of Indian Biography, by: C. E. Buckland, published by: Swan Sonnenschein & Co. LIM, London, 1906.

2-Islamic Contestations, by: Barbara D. Metcalf, published by: Oxford University Press, 2006.

3-The Golden Book of India, by: Sir Roper Lethbridge, Published by: Macmillan And Co. London, 1893.